العلامة الجليل الدكتور محمد هيثم الخياط

26 تشرين الأول/أكتوبر 1937 – 5 أيلول/سبتمبر 2020

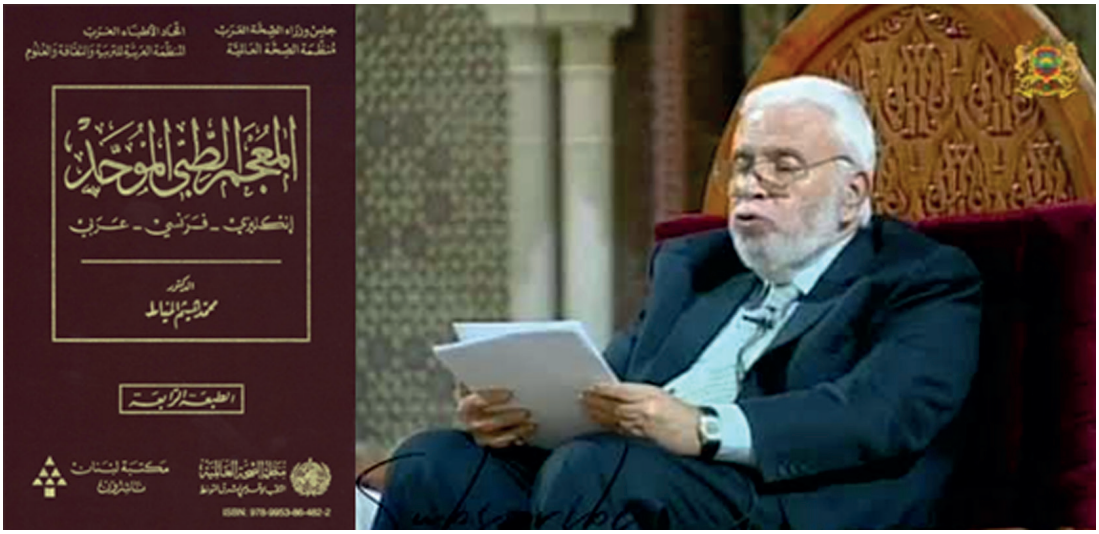

قاسم سارة

طبيب وباحث سوري، له عناية بالتعريب والترجمة.
مدير شبكة أحسن لتعريب العلوم الصحية،
عضو مراسل بمجمع اللغة العربية بدمشق.
وقد شغل منصب المستشار الإقليمي للبرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية.

الدكتور محمد هيثم الخياط طبيب لامع، وله صيتٌ ذائع في علوم الكيمياء والبيولوجيا والمختبرات الطبية، وباع طويل في اللغة وفي الفقه وفي علوم التفسير وفي تحصيل العلوم الشرعية على أعلام بلاد الشام، وقد حباه ربه الكريم بفطرة نقية وحس مرهف في تخيُّر المصطلحات الطبيَّة والعلمية التي تصيب المعنى بمقدار ما تلقى من القبول لدى السامع.

ولا عجب في ذلك فقد كان المرحوم الدكتور محمد هيثم الخياط سرَّ أبيه العلّامة الجليل الطبيب الجراثيميّ أحمد حمدي الخياط (1899 - 1981) ، الذي اجتمعت له سيماء الريادة في علوم الطب والمختبرات، وانفتحت له مقاليد العلوم في مطلع القرن المنصرم فعبَّرها لطلابه في كلية الطب في جامعة دمشق، بلغة عربية سليمة وبسيطة يفهمها ويحبها كل من يسمعها منه...

نعم، كان الدكتور محمد هيثم الخياط سرّ أبيه حقًّا وصدقًا، بل إنه حظي من رِفاق أبيه بقدر وافر من الحب والعطف والرعاية، ثم تَحَوَّل الحبُّ إلى صداقة، فكانوا رفاقًا له كما كانوا رفاقًا لأبيه من قبل، وتحوَّل العَطْفُ إلى تَقْديرٍ وإجلال، وتَحَوَّل اتجاه الرعاية لتصبح منه إليهم، فمن النعم الجليلة التي مَنَّ الله بها على الفتى الهيثم أن بارك له في قلبه الكبير، ليتسع لأسرار جميع رفاق والده، رحمهم الله، فتلقى العلم عنهم مشافهة في جلسات المساء التي يعقدها والده في داره لتدارس علوم اللغة والفقه والقراءات والأصول، وفي زياراته لبيوتهم طالبًا للعلم، لا يمنعه عنه حَرٌّ ولا قَرٌّ، يسابق انبلاج الفجر، ويطلب المهلة من الشمس لعلها تتأخر ليرتوي من قلوب أساتذته ومشايخه في الشام، فيسرع إلى مدرسته وجامعته ليكون أول الواردين وآخر الصادرين.

ومرت السنوات على الفتى فإذا به أضحى سفيراً بين والده، الذي كان الحياء في الخلق واللطف في الخلق يزينان له ملازمة البيت، وبين الأساتيذ من رفاقه الأجلاء الذين جلُّهم يُلازِمُ داره، ولعل الفتى كان في كل مرة يستطيب الاستماع إلى رأي والده وآراء زملائه حول كل مسألة تعرض لهم في الطب أو في اللغة.

وفوجئ الخياط الفتى بوالده وبرفاقه من العلماء الأجلّاء والأساتذة الفضلاء يراجعون معه مسائل في اللغة وفي الطب، ويستمعون لرأيه، ويستوثقون منه صحة ما يجدونه غريبًا عليهم، ويستأنسون بمشورته. وكان ذلك كما كان الخياط الفتي يقول إن رفاق أبيه كانوا، تفضُّلًا منهم، يعدُّون أنفسهم من رفاقه.

تلقى المرحوم الدكتور محمد هيثم الخياط بدايات تعليمه في المنزل، ولم يذهب إلى المدرسة إلى الابتدائية إلا عندما قارب عمره سبع سنوات، فرأى أهله ضرورة حيازته للشهادات التعليمية الرسمية، فعرضوه على اللجنة المتخصصة بتعيين المستوى التعليمي، ليلتحق بالصف الرابع.

الدرس السادس من الدروس الحسنية تناول موضوع: "تعليل الأحكام والعقائد في الإسلام"

ألقاه بين يدي أمير المؤمنين كبير مستشاري المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في شرق المتوسط : د. هيثم الخياط

ومضت سنوات واعتاد الفتى أن يلتفّ بظلام الأسحار لينطلق في الحارات الضيقة والمتعرجة من داره في أعلى حارات المهاجرين إلى منزل الشيخ عبد الوهاب الحافظ ليأخذ عنه التجويدَ والفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، لينال عنده لقب "أبي حنيفة الصغير"، ويتابع تلاوته المتقنة وهو يجثو على ركبتيه الساعات الطوال قبل أن يتابع سيره إلى المدرسة.

وتابع الفتى الخياط دراسته الرسمية لينال عام 1959 شهادة دكتور في الطب من جامعة دمشق، وعمل في التدريس في جامعة دمشق ثم سافر إلى جامعة بروكسيل لينال عام 1969 شهادة أهلية التعليم العالي في العلوم الكيميائية الحيوية، ويعيَّن أستاذًا في كلية الطب في بروكسل، ثم عاد أستاذًا في جامعة دمشق، ورئيسًا لقسم الطب المخبري فيها في الفترة ما بين 1971 حتى 1981، وعمل في مطلع الثمانينات مديرًا لتحرير "مجلة الدُّلْفِين الصغير"، وهي مجلة أطفال باللغة العربية تصدر عن دار نشر إيطالية، تقدم علوماً ومعارف في إطار مَرِحٍ مُسَلٍّ، فأَصْدرها بالعربية، في ميلانو، عن "دار دلفين للنشر"، ووزعت في أنحاء الوطن العربي، مع موسوعة الشباب باللغة العربية، وسلسلة موسوعة الطبيعة.

وكان الدكتور الخياد قد انْتُخِبَ مقررًا للجنة المصطلحات فيه بين عامي 1976 و1983، واسْتُقْبِلَ عُضْوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1979، وانتخب رئيسًا للمكتب الإقليمي لجمعية "الكيمياء السريرية" (Clinical chemistry) لبلدان أفريقيا والبحر المتوسط والشرق الأدنى، ومقرها في ميلانو بإيطاليا، ثم غادر دمشق عام 1982 للعمل في منظمة الصحة العالمية في المكتب الإقليمي لشرق المتوسط في الإسكندرية، وشغل منصب كبير مستشاري المدير الإقليمي فيه حتى تقاعده منه.

وعلى صعيد آخر كان الدكتور الخياط عضوًا لمجمع اللغة العربية بدمشق وبغداد وعمّان والقاهرة وعليكرة في الهند، واختير عضوًا لأكاديمية نيويورك للعلوم، ولأكاديمية العلوم السياسية بالولايات المتحدة الأمريكية، وعضوًا في مَجْمَع الفقه الإسلامي (المنبثق عن منظمة التعاون الإسلامي) بجدة، وعضوًا مُؤَسِّسًا لمركز دراسات مقاصد الشريعة في مؤسسة الفرقان، في لندن، وعضوًا في مجلس أمناء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وعضوًا في مجلس أمناء المنظمة الإسلامية للعلوم، ورئيسًا لتحرير المجلة الصحية لشرق المتوسط التي تصدرها منظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط، وعضوًا في مجلس أمناء المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية.

وقد أصدر حوالي عشرين كتاباً بالعربية والفرنسية والإنجليزية، من أهمها المعجم الطبي المُوَحَّد، فقد كان الدكتور الخياط مُقَرِّرًا للجنة توحيد المصطلحات في هذا المعجم المتعدد اللغات: إنجليزي - عربي- فرنسي- ألماني- فارسي- إسباني، ويضم ما يزيد على مئتي ألف مصطلح مع شروحات وتعريفات، وبفضل رعايته أصبح معظم مصطلحاته معتمدة لدى تطبيقات الترجمة مثل غوغل، وصدرت طبعاته الورقية عن مكتبة لبنان ناشرون، ويتم تحديث الإصدارة الإلكترونية على موقع منظمة الصحة العالمي بانتظام، وبدايته تعود لنصف قرن خلت وهو ثمرة جهد ومشاركة المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، واتحاد الأطباء العرب، ومجلس وزراء الصحة العرب، ومنظمة الصحة العالمية.

وقد صدرت للدكتور الخياط عشرات من الكتب في الصحة واللغة والفكر والفقه، وخاصةً في مجال التعريب،وفي لغة القرآن وفقه الصحة والبيئة والمرأة والزكاة والحج وسائر العبادات، وكان كتابه في سبيل العربية فريدًا في بابه حتى أنه طبع خمس طبعات متتاليات، إلى جانب كتاب المرأة المسلمة وقضايا العصر، وفقه الصحة، وسلسلة الهدي الصحي، وهي مجموعة دراسات تناولت القضايا الصحية من منظور ديني، ومنها إعلان عَمَّان لتعزيز الصحة، والماء والإصحاح، والذبح والذبائح، والختان، والتدخين، والإيدز، والبيئة.والصحةُ حقاً من حقوق الإنسان في الإسلام، ومعالم العبادات، وأكثر من "700" مقالة بالعربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية في مختلف المجالات.

وقد استجاب مرات عديدة للدعوة من المملكة المغربية للمحاضرة في الدروس الـحَسَنِيَّة الرمضانيّة في حضرة جلالة الملك حول مواضيع علوم القرآن والحديث والفقه والكون، فتحدث عن المعدة بيت الداء والحمية الدواء، وعن تعليل الأحكام والعقائد في الإسلام، وعن الصحة الاجتماعية من منطلق إسلامي، كما لبَّى دعوة الجمعية المغربية للتواصل الصحي وتحدث فيها عن تجربة التعريب للعلوم الصحية بالوطن العربي؛ تحديات وآفاق، وعقد لقاءات واتفاقات بينها وبين منظمة الصحة العالمية.

ورغم مؤلفات الدكتور الخياط المطبوعة والمحاضرات التي ألقاها في جامعات ومدن كثيرة، فإن الميراث الكبير الذي تركه هو الجيل الذي تعرف عليه وأخذ عنه حسن التصرف والحكمة في اتخاذ القرارات. فكم تعلَّم جيلنا من

ما منَّ الله عليه من الخُلق الكريم... فلم نسمعه يومًا يذكر أحدًا بسوء، ولم نرَه يومًا يؤذي أحدًا من مخلوقات الله، أو يَحقِرُ يومًا من المعروف شيئًا، وكان يلقانا دائمًا بوجه طلق، فنشعرُ بصِلته الوثيقة والفريدة بـخالقه عزَّ وجلَّ، وأنها صِلة تتضمَّن غايةَ الخضوع مع غاية الحبِّ، وأنه يرجو أن يجعله الله ممَّن يحبُّهم ويحبُّونه.

أما الكلمات المفتاحية الكثيرة التكرار لدى الدكتور الخياط فهي التوحيد لله، والتوحيد للمصطلحات الطبية والصحية باللغة العربية، والمعجم الطبي الموحد، والتعريب لمواد التعليم والتعلم. وقد قضى الدكتور خياط حياته في خندق الدفاع عن اللغة العربية والدعوة إلى تمكينها في العلم والتعليم، وتوطينها في الحياة العامة.

وفي الفكر الديني كان الدكتور الخياط يحب التوسُّط في الأمور، ويكره الغُلُوَّ كما يكره التَّفْرِيْطَ، ويسلك ذلك المسلك في اللغة أيضًا، فيسارع إلى قبول ما يرتضيه الناس من الألفاظ والأساليب، ويعتبر ذلك جوهر الأصالة. ولاعجب أن تكون أكثر الكلمات دورانًا على لسانه هي التيسير، وقُلْ ولا حَرَجَ، مادام لقولك وجهًا، ولا يخدش الحياء ولا يهدد الأخلاقَ، بل يخفظ الصَّحَّةَ والـمُعافاةَ.

ومما انفرد به الدكتور الخياط في حياته العملية أنه يُحِبُّ إذا عمل عملًا أن يَنْسِبَ فضله إلى مَنْ يحتاج لمثل تلك النسبة في مسيرته المهنية، فالكثير من الكتب التي تحمل اسم الدكتور الخياط إلى جانب اسم أستاذ غيره ليس سوى جهد خالص للدكتور الخياط وحده، وبعض الكتب التي تحمل أسماء بعض طلابه، بل وبعض أساتذته، ليست سوى إنجازات مَحْضَةٍ له وحده، ولكنه أسندها إلى طالبٍ عنده أو إلى أستاذٍ له تذكرة منه وشَحْذًا للهمم.

وكان الحلم من أبرز السمات الشخصية لدى الدكتور الخياط، فكم زَكَّى زَمِيْلًا كان يتَعَمَّد الإساءة من قبل إليه، حتى قلنا أن من أراد أن يستدرَّ إحسان الدكتور الخياط فليبادر إلى التظاهر بالإساءة لشخصه الكريم.

وعندما تُوُفِّيَ الدكتور الخياط نعاه العلَّامةُ حَسَن الشَّافِعِيُّ بقوله: المفكر العربي الأصيل، والحجة باللغة العربية والشريعة والفقه الإسلامي، إنه من هدايا دمشق إلى القاهرة.

وفي الخامس من أيلول/سبتمبر هذا العام 2025، ستكتمل خمس سنين على وداعه، وتحن جميعًا، طلابًا ومحبين، نضع أيدينا فوق قلوبنا كل يوم ونحس بساكنها الدائم، الدكتور محمد هيثم الخياط، رحمه الله وأحسن إليه.